كتابك

١١٤

فتحي أبو الفضل

رحلتى مع الرواية

دار المعارف

هـذا الكتاب

* هذه رحلة طويلة مع الرواية يقدمها واحد من كتابها البارزين منذ بدأها فى عام ١٩٣٨ حتى الآن .

وهى حصاد تجربة طويلة من الإبداع والمعاناة يمكن أن يضعها الأدباء الشبان هادياً لهم فى مسيرتهم الجادة . .

كتابك ١١٤

رئيس التحرير أنيس منصور

فتحى أبو الفضل

رحلتى مع الرواية

دار المعارف

١

ذات يوم .
منذ نحو خمسة وأربعين عاماً .
العمر فى بكوره .
والصحة فى عنفوانها .
والآمال عريضة عرض البحار التى يضل فى متاهاتها البصر !
سمعت نفسى فى ذلك اليوم البعيد تقول لى :

– أراك مهموماً شارداً غير مقبل على الكتابة التى بدأت تعيش لها ومن أجلها ؛ فالقصة القصيرة التى بدأت كتابتها منذ نحو أسبوع لم تفرغ منها بعد ! وكنت لا تستغرق – قبل أن تعتريك هذه الحالة – أكثر من يومين من قصة مماثلة . . فماذا جرى لك ؟

ولما لم أجب نفسى عادت تلح !

أعرف ما تفكر فيه وأعرف ما يدقّ جدار رأسك المجهد هذا ، فيضنيك بأكثر مما أنت مُضْنىً !

ثم سكتت نفسى لحظة لتعود تقول :

أنت تفكر فى خوض هذا الخضم الواسع العريض العميق الخطر ،

أنت تفكر فى أن تقتحم بحر الرواية ، أنت تريد أن تكتب الرواية . . أليس كذلك ؟ أليس هذا ما يهمك ويقلقك ويعذبك ؟

أطرقت برأسى وكأننى أقر كل كلمة سمعتها من نفسى ؛ فأنا – فعلاً – يحرقنى الشوق لأن أكتب الرواية بعد أن كتبت نحواً من ثلاثين قصة قصيرة .

ثلاثون قصة قصيرة وأنا فى نحو العشرين ، ربما أكبر بأشهر لا يجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة .

وعاد صوت نفسى يرتفع قليلاً وهى تقول :

– يارجل ، اعقل واعرف قدر نفسك ! ولاتفسح المجال لمن اعتادوا السخرية مما تكتب برغم أنه ينشر فى مجلاتنا الأسبوعية وتؤجر عليه ! لاتفسح المجال لهؤلاء الساخرين ! بالفرصة لمزيد من سخريتهم الجارحة وتعليقاتهم الجاهلة .

أنت تَكتب الرواية ؟

لم ؟ وفيم ؟

أنت تكتب القصة القصيرة منذ سنوات ، وقد حققت فيها نجاحاً ملحوظاً ، فقد فزت بالجائزة الأولى فى المسابقة التى دعت لها مجلة الجامعة بقصتك « نهاية غرام » .

ثم شفعت هذا الفوز بفوز ثانٍ عندما فازت قصتك « شهر زاد » بالجائزة الأولى فى المسابقة التى دعت لها مجلة الكاتب .

ثم عززت هذين الفوزين بفوز ثالث أكبر عندما فازت قصتك « إحدى اللواتى ينتظرن » بفوز مماثل فى المسابقة التى دعت لها « مجلتى » ومجلتى - كما تعلم - مقصورة على أقلام عمالقة القصة والرواية من أمثال (طه حسين وتوفيق الحكيم والمازنى وهيكل باشا وغيرهم) . ففيم نبذك أو هجرك ماتحسنه وقد أحسنته فعلاً وحققت فيه أكثر من فوز بتجربتك الطويلة الشاقة - إلى غير ما تحسنه ولا خبرة لك به ؟

نصيحتى أن تبقى كما أنت ، وأن تكتفى بكتابة القصة القصيرة ، وأنا زعيمة بأن أؤكد لك أنك ستصبح من أعلامها خلال أعوام لن تتعدى العشرة بحال ! والمهم أن تستمر .

وبدأ صوت نفسى يخبو بعد أن أسمعتنى مالا أحب !

لقد كنت فى حاجة لمن يقول لى غير ما قالت لى نفسى .

كنت فى حاجة ماسة لمن يشجعنى ، ويشد من أزرى . . لمن يقول لى :

ولم لا ؟ حاول أن تكتب الرواية ، والمهم أن تختار الموضوع : أعنى القصة ، أوكما يقولون « الحدوتة » التى ستضمنها الرواية ، ثم ابدأ بتؤدتك التى نعرفها عنك وصبرك وجلدك واحتمالك ، واستعدادك ؛ لأن تعيد كتابة الكلمة - ولاأقول الجملة أو العبارة - عشر مرات ، عشرين مرة ؛ لتصل فى النهاية إلى الكلمة التى هى أجمل والعبارة التى هى أكمل والتركيبة التى تتسلل إلى نفس القارئ وقلبه ووجدانه كنسمة الهواء

التى ترد الروح للروح ! اكتب الرواية ؛ فأنت قادر على كتابتها .

كنت فى حاجة لمن يقول لى هذا.

ولكنْ ممن ؟

وأين هم ؟

إن كل من حولى يسخرون مما أكتب !

يقرءونه سرًّا – بلهفة – فى الصحف الأسبوعية التى تنشر القصة القصيرة ، ويعرفون أننى أكافأ عما أكتب ، ومع ذلك يسخرون ، وأنا أعرف أنهم يسخرون ، ومع ذلك فإننى لم أكن أزيد على كلمة « طيب ! لهم دينهم ولى دين ! » .

وكنت أقول : هذا لنفسى ، وأستمر فى الكتابة ، كتابة القصة القصيرة فى صبر وصمت ودأب لا نهاية لها جميعاً .

٢

والمطرقة الصلبة الصغيرة ، أو حافة قطعة النقود المسكوكة من الفضة تدق جدار رأسى بعنف وهاتف من الأعماق يقول لى :

– متى تبدأ كتابة رواية طويلة ؟

هذا ، وبرغم أن نفسى لا تزال تحذرنى خوض هذه التجربة ، فهى أكبر منى ، أو أننى الأصغر منها ، هى أكبر أو أنا أصغر سيان ، فالنتيجة

واحدة ، وإن التوازن مفقود بين قدراتى وبين رغبتى فى أن أحقق ما يحرقنى الشوق إليه للإقدام عليه ؛ لأننى غير مؤهل لأن أكتب الرواية ، فهكذا قالت لى نفسى !

الأعوام - وهى تمضى - أتاحت لى صداقة كريمة ربطتنى بفنانة كبيرة شابة من ممثلات الفرقة القومية المصرية كان هذا اسمها فى عهدها الأول - منتصف الثلاثينيات - أيام كان يراسها المغفور له الشاعر خليل مطران .

كان من أهم ماربط بينى وبين الممثلة الكبيرة الشابة أنها تكتب ، وتكتب عن عشق للقلم ، وعن اطلاع مستمر على كل ما تخرجه المطابع - تقريباً - من الرواية الطويلة ، وقد شرفتنى عندما قالت لى : إنها تتابع ما أكتب ، وإنها شديدة الإعجاب به !

وتقبلت عبارتها على أنها مجرد مجاملة من سيدة رقيقة مثقفة مهذبة ، ولكنها سرعان ما أثبتت لى أننى ظلمتها بهذا الظن : ذلك أنها بدأت تناقشنى كثيراً فى قصصى التى نشرتها لى صحافتنا الأسبوعية ، وكانت مناقشتها جادة واعية ، مناقشة قارئة لا تقرأ لمجرد إزجاء الوقت ، بل لتستفيد ؛ فهى - كما قدمت - تكتب أيضاً ولها فى الكتابة محاولات جديرة بالتأمل والاحترام وإن لم تحاول نشر شىء منها فى صحافتنا المصرية .

سألتنى الصديقة الكريمة يوماً :

– لم لا تكتب تمثيليات ومسلسلات لإذاعتنا المصرية ؟

فأجبتها أن الاختبار صعب ؛ لأن الدكتور (طه حسين) هو الذى يقرأ كل ما يرد إلى مراقبة التمثيليات من نصوص فيجيز ما يراه صالحاً ولا يجيز غير الصالح ، وأنا أخشى (طه حسين) وحكم طه حسين ! فأجابتنى : بأن عكس ما أظن هو الصحيح ! فوجود طه حسين على رأس جهاز التمثيليات هو الضمان الوحيد المؤكد لقبول العمل الجيد الذى يليق بأن يذاع على الملايين ، ثم دقت ظهر كفى بأطراف أصابعها وهى تقول بلطفها البالغ وبلهجة ملؤها الثقة :

– اكتبْ تمثيلية وقدمها وسترى .

وكتبت التمثيلية ، وكان عنوانها « ليلة الورد » وأنا أعرف أن هذا العنوان مستعار من شاعر فرنسا ألفريد دى موسيه ؛ لأنه عنوان إحدى لياليه « ليلة مايو » ولكننى كنت مفتوناً بالعنوان وبصاحب العنوان ، ولم أجد حرجاً فى أن أجعله عنوان تمثيليتى الإذاعية الأولى .

وقُبلت التمثيلية فوراً ؛ فقد كانت شيئاً جديداً على أدب التمثيلية الإذاعية شكلاً وموضوعاً وصياغة ؛ فقد كتبتها باللغة العربية ، وكان هذا شيئاً نادراً بالنسبة لتمثيلية الإذاعة .

وأذيعت ، وأستأذن فى أن أقول : إنها نجحت نجاحاً منقطع النظير ، وبدأ الإذاعى الكبير (محمد فتحى) وهو معلم جيل بأسره من الإذاعيين اللامعين يرعى ما أقدمه من تمثيلياتى التى تتابعت ، واستطعت أن آخذ

مكانى بسرعة إلى جانب كاتبيْنِ أو ثلاثة كانوا يكتبون تمثيلية الإذاعة فى هذا الوقت ، وكان فى مقدمتهم الصديق الكبير (يوسف جوهر) أول من بدأ المسلسلات بمسلسلته التى لا تنسى « حسن القرنفلى » .

كل هذا لم يقنعنى ، ولم يكفنى .

إن المطرقة الصلبة الصغيرة ، أو حافة قطعة النقود الفضية لاتزال كل منهما تدق جدار رأسى بعنف وكأنها تصرخ بى :

الرواية ! أموت شوقاً لأن أكتب الرواية .

من الأمانة أن أعترف هنا بأننى لم أكن متردداً وحسب ، بل كنت خائفاً خوف مريض قالوا له :

سُتجرى لك جراحة بلا تخدير . ! فأنا لم أتعود الإقدام على عمل لا أحسنه أولاً أكون على تمام الثقة بأننى أحسنه ، فماذا لو كتبت رواية ولم يستقبلها القراء كما يستقبلون قصصى القصير ، أو كما يتلهف المستمعون على الالتفاف بأجهزة الراديو للاستماع إلى تمثيلياتى ومسلسلاتى ؟

هل أقامر بهذا الرصيد الكبير الذى تجمع لى مدى السنوات الخمس أو الست التى أنقضت ؟ ثم أى موضوع أختاره « موضوعاً » لروايتى الأولى ؟

ولكنى استبعدت هذا السؤال ؛ فقد أحسست به سابقاً لأوانه ؛ فالمهم أولاً أن أتخذ القرار الخطير !

كنت أراه قراراً خطيراً — أن أكتب الرواية !

إلى أن ضمتنى جلسة طويلة بصديقتى الممثلة الكبيرة الشابة ، والجلسة كانت فى مسكنها الصغير بالزمالك ، وطفلتها الواحدة تؤنس اجتماعنا والشاى والحلوى أمامنا .

فجأة سألتنى :

– لم لا تكتب الرواية ؟

أحسست لوهلتى أننى كلولب من الصلب القوى تخلص فجأة من ثقل ثقيل ثقيل كان يضغط حلقاته المتتالية حتى التصقت كل منها بما فوقها أو تحتها ، فعاد فجأة إلى حجمه الطبيعى وإلى إحساسه بالراحة والحرية إذا كان الصلب يحس التعب والأسر كما نحسهما نحن البشر !

كان قدح الشاى بين إصبعى وقد قربته من شفتى ، فأسرعت برده إلى سطح المائدة الصغيرة التى أمامنا ، والتفت إليها وقد تنبهت كل حواسى وأنا أسألها :

– ماذا قلت ؟ أرجو منك أن تعيدى سؤالك الذى ألقيته على اللحظة .

أجابتنى بلهجة تتناهى بساطة :

– سألتك : لمَ لا تكتب الرواية بعد أن حققت نجاحاً مرموقاً فى القصة القصيرة ومِنْ بعدها فى تمثيلية الإذاعة ؟

فى عبارات قصيرة : كشفت لها عن ترددى وخوفى وإشفاقى على نفسى ، وعلى اسمى وقلمى ، شرحت لها رهبتى الشديدة من هذه

التجربة ، وكان مما قلته لها :

– الرواية كالبحر الواسع العريض يضل الكاتب طريقه فى متاهاته البعيدة ، وهى مسئولية ضخمة تحتاج إلى استعدادٍ خاص وموهبة خاصة و « نفسَ ، طويل » ! وقد لا تكون جميعها ضمن مكوناتى الفنية ، فلا تسعفنى قدراتى العاجزة عند الكتابة ، فأعجز عن تقديم عمل له من القيمة الفنية مثلُ ما استطعت أن أحقق فى القصة القصيرة أو فى تمثيلية الإذاعة .

ولكنها لم تقتنع بما قلت ، فراحت تقنعنى بأن انتقالى من كتابة القصة القصيرة إلى الرواية هو الامتداد الطبيعى لمسار الكاتب الذى أعد نفسه ووهبها للأدب القصصى قصيره وطويله ! وأننى سأحس متى خضت التجربة ، وحققت فيها مثل ما حققت فى القصة القصيرة من نجاح – أننى إنسان آخر ، أننى أنتمى إلى طبقة أخرى من طبقات الكتّاب .

ثم لحظة صمت قصيرة لتضيف :

– المهم أن تختار موضوع الرواية التى ستبدأ بها .

ابتسمتُ وأنا أجيبها :

– وهذه مسئولية كبيرة أخرى .

وضعت قطعة من الحلوى فى الصحفة أمام ابنتها الطفلة وهى تقول لى :

– هل أروى لك قصة أتمنى أن أراها مكتوبة بقلم روائى يحس بكل

تفاصيلها الدقيقة كما أحسها ، وكما سأرويها له ؟

ابتسمت وأنا أجيبها :

- ليتك تفعلين !

تدريجاً أحسست أنها تغرق فى سهوم عميق . ، وشردت بعينيها السوداوين الحزينتين كأنها سافرت بهما إلى بعيد بعيد بعيد !

وخيل إلى أن غلالة شفيفة من دموع لمعت فيهما ، ولكنها استطاعت بقدرة خارقة حيرتنى أن تمنع هذه الغلالة الشفيفة من أن تتبلور إلى دمعة تفر من بين جفنيها لتسيل على الخدين .

واحترمت صمتها وسهومها ودمعتها التى قاومتها ؛ فقد أدركت كل شىء ، فلذت مثلها بالصمت ، وهيأت نفسى للاستماع إلى شريحة من حياتها الخاصة . . حياةِ صديقتى الممثلة الكبيرة الشابة ؛ فقد كان هذا واضحاً .

كان واضحاً أن ما سترويه لى يمثل قطعة من حياتها ، وعندما يروى إنسان لإنسان أسرار مرحلة من حياته - فإنه يكون بالقطع - على استعداد للكشف عن بعض عوراته إذا التزم الصدق والأمانة فيما يروى ، والعوراتُ خليق بها أن تصان !

فهل تقص على الصديقة كل شىء ، ودون أن تخفى أى شىء . بلا حذف ، بلا بتر ، بلا حياء أو حرج ؟

أجابتنى نفسى وقد طرحت عليها هذا السؤال :

– لا تتعجل ، واسمع ما ستقصه عليك ، وأنت – بكل تأكيد – ستفوز فى النهاية بموضوع شائق !

إن شابة فى مثل هذه السن – لم تتم الثلاثين بعد – وعلى هذا القدر الكبير من الجمال والشهرة والمكانة الفنية والثقافة ، وهى بكل المقاييس مرموقة ، مرموقة بجدارات مختلفة فى حقلها الفنى ، مثل هذه الفنانة الكبيرة – لن تقص عليك قصة رخيصة أو تافهة أو ساذجة !

وبدأت صديقتى تروى لى القصة – أو الرواية – التى قالت : إنها تتمنى أن تراها مكتوبة بقلم روائى يحس بكل تفاصيلها الدقيقة كما تحسها وكما سترويها لهذا الروائى الموعود !

واستغرقها القص ساعة كاملة لاذت بعدها بصمت طويل ، فاحترمت صمتها ، ولم أفتح فمى بكلمة !

هل يمكن أن تكون هذه الأحداث التى قصتها صديقتى على جزءاً من حياتها ؟

لا أدرى !

ولكنى – بكل تأكيد – لم أسمع بها من قبل : أعنى بهذه القصة ، كما أننى لم أقرأ عنها فى أية مجلة من مجلاتنا الأسبوعية التى يسابق بعضها بعضها الآخر نشر أنباء الفنانين والفنانات بنوع خاص – فهى مادة مثيرة للقراء . . كل القراء من الجنسين ومن مختلف الأعمار .

ولم أفترض أن القصة قصتها ؟

لم لا تكون قصة صديقة أو قريبة أو زميلة أو أى شابة من معارفها ؟ المهم مادة القصة وليس صاحبتها .

ولما طال صمتى الذى التزمته احتراماً لها ولصراحتها الموجعة وهى تروى لى أحداث الرواية التى تقترحها على لأبدأ بها مرحلة جديدة من مراحل حياتى الأدبية - سألتنى بصوت شاحب كصوت طفلة تغالب النوم .

- ما رأيك ؟

أجبتها من فورى ، ولكن فى هدوء شديد وبلا أى انفعال :

- هذه أحداث كفيلة بإثراء أى عمل روائى كبير .

- ستكتبها إذن . .

لذت بالصمت قبل أن أجيبها بكلمة .

فالخوف من كتابة الرواية كان يعقد همتى ، ومن ثم لسانى ، فلم أُجبها بلا أو نعم ، إلى أن وجدت العبارة المناسبة ردًّا على سؤالها فقلت :

- سأحتاج - بكل تأكيد - لفترة معايشة وتأمل لهذه الأحداث الجميلة المثيرة التى قصصتها على الآن ؛ لأرتبها ؛ لأعرف من أين أبدأ ، فبداية أية عمل قصصى أو روائى تستأدينى معاناة مريرة ومقارنات ومفاضلات لا حصر لها بين عدة بدايات تخطر لى وأنا أجتاز مرحلة التحضير الذهنية ، ومن هنا - فلا بد لى من فترة كافية أهيىء نفسى خلالها لبدء التجربة الأولى فى حياتى ، تجربة الرواية ، لا أخفى عنك أننى أحس الآن إحساس من لا له أى دراية بالعوم ، وفجأة وجد نفسه

مضطراً لعبور النيل سباحة من أحد شاطئيه إلى الشاطىء الآخر المقابل وهو الذى لم يسبق له أن نزل إلى البحر مرة واحدة فى حياته ! .

وابتسمت وهى تقول :

– حرصك الشديد هذا ، وتناولك التجربة بمثل هذا الحذر– يؤكدان لى أنك ستخرج علينا بعمل روائى كبير ناجح جميل .

قلت لها :

– إننى أرجو هذا .

وكان فى هذه الكلمات « إننى أرجو هذا » مايشبه التوقيع بالحروف الأولى – بلغة الساسة – على اتفاق بين الصديقة الكبيرة وبينى على أن أصوغ ما قصته على – أو ما روته لى – عملاً روائياً كبيراً .

٣

بضعة شهور مضت على هذا الحديث الذى دار بينى وبين صديقتى ، الممثلة الكبيرة الشابة وأحداث القصة التى قصّتها علىّ كانت شاغلى فى كل دقيقة من يومى بليله ونهاره !

فأنا أفكر فى المدخل .

كيف أدخل القصة ؟

المدخل فى تقديرى – حتى فى القصة القصيرة – من أهم مقومات

العمل القصصى أو الروائى الناجح – إن لم يكن أهمها – حتى لا يُلقى القارئ بالكتاب جانباً بعد فراغه من قراءة الصفحة الأولى إذا كان – أعنى المدخل – تمهيداً أكثر منه حدثاً ، وحشواً ولغواً واستعراضاً لبعض محسنات الألفاظ أكثر منه « دخولاً » إلى الموضوع من خلال سطور قلائل لا تتجاوز النصف الأول من الصفحة الأولى بحال .

هذا فى تقديرى الشخصى على أية حال .

والموضوع الذى قصته صديقتى على ، كان شائقاً ، وكان حياً ، وكان مثيراً ، ويتسع لكثير من الاجتهاد عند صياغته عملاً روائياً ، ومن هنا أخذت نفسى بجدية بالغة لأن أجعل منه أول أعمالى الروائية .

ولكنى – ولأنها كانت تجربتى الأولى – أحسست أن التهيئة النفسية التى أحتاج إليها حتماً لكى أبدأ الكتابة قد طالت بأكثر مما يجوز !

الموضوع كله وبحذافيره بين يدى ، ففيم الانتظار أطول ؟

إلى أن وصلنى العدد الأسبوعى من مجلة الثقافة ، الأخت الصغرى للرسالة والرواية .

والأخوات الثلاث الجميلات كان يصدرها الأديب القاص الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات عن دار الرسالة ، كما كان يرأس تحريرها جميعاً ، ولم يكن فى مصر أو فى أى بلد من البلاد العربية أديب أو محب للأدب لا يقرأ المجلات الثلاث كل أسبوع بانتظام .

فى ذلك العدد – أعلن الأستاذ الزيات عن مسابقة كبرى بين كل من

يكتبون الرواية فى العالم العربى ، ورصد مبلغ مائة جنيه تمنح مناصفة للفائزين الأولين بأفضل روايتين : أى أن الرواية الفائزة سيمنح مؤلفها خمسون جنيهاً .

فجأة سمعت صوت نفسى تقول لى :

هذه فرصتك ، وهذه المسابقة يجب أن تكون حافزاً قوياً يدفعك للتغلب على خوفك أو إشفاقك من كتابة الرواية ، لا تدع هذه الفرصة تفلت منك ، فأنت تستطيع – بكل سهولة – أن تقهر هذا الإحساس بالخوف والتردد الذى جمدك فى مكانك سنوات ! وأعترف آسفة أننى ربما كنت السبب فى هذا عندما حذرتك طويلاً من خوض التجربة ، ولكنى – الآن وبين يديك مثل هذه الفكرة – أو أقول الأحداث الرائعة – التى قصتها عليك صديقتك الممثلة الكبيرة أستطيع أن أقول لك : إنه قد آن لك أن تنتقل من كتابة القصة القصيرة إلى كتابة الرواية قمة العمل الأدبى .

وسألت نفسى :

– هل أخبر صديقتى بهذا ؟

هل أخبرها بأننى سأكتب الرواية التى روت لى أحداثها ، وأننى سأشترك بها فى المسابقة التى دعا لها الأستاذ الزيات على صفحات الثقافة ؟

وجاءنى الجواب فوراً :

– لقد عشت حياتك – دائماً – فى الصمت ، كل أعمالك كانت فى صمت وهدوء ، وأنت بطبيعتك عزوف عن الدعاية لنفسك ، ولم تسع إلى هذه الدعاية فى حياتك قط ، فما الذى يدعوك لإعلان صديقتك بما صدقت نيتك عليه ؟

إنها سألتك أن تكتب ما قصته عليك فى قالب رواية ، وأنت ستجيب سؤالها – أو رجاءها ، ومسألة دخولك المسابقة أو عدم دخولك مسألة جانبية لاشأن لها بالأصل ، والأصل هو أن تبدأ الكتابة ، وستكون مفاجأة ضخمة لها عندما تعلن النتيجة بعد شهور ، ويُعلن فوز روايتك ، لتنتشر بعد ذلك على صفحات الثقافة – على حلقات – كما أعلن الأستاذ الزيات فى إعلانه عن المسابقة.

إلى هذا الحد كانت ثقتى بالغة وكاملة بأننى سأفوز بإحدى الجائزتين المتساويتين المقررتين للروايتين اللتين سيعلن فوزهما .

وأسعدنى أن ليس هناك جائزة أولى وأخرى (ثانية) ، فالاختيار كما جاء فى الإعلان سيكون لأحسن روايتين لتنال كل منهما جائزة مساوية لجائزة الرواية الأخرى فإننى – لفرط حساسيتى وخوفى وإشفاقى على نفسى – كنت أخشى أن أفوز بالجائزة (الثانية) على حين يفوز غيرى بالأولى بعد أن تعودت فى مسابقات القصة القصيرة أن أكون الأول دائماً .

الأول ، أو لا أدخل المسابقة !

٤

بعد فراغى من كتابة ثلاثة فصول منها أحسست إحساساً غريباً ، إحساس جراح ناشئ شق بمبضعه بطن مريض ، ثم فوجئ بحيرة غريبة فيما يفعل بعد أن اختلط الأمر عليه لحداثة عهده بالجراحة ! . إنها أول جراحة يقوم بها ، ووجد نفسه فجأة أمام اختيارين :

أن يخيط الجرح ويعيد إقفاله التماساً للسلامة ، فيضمن إنقاذ حياة المريض ، وليترك علم الجراحة لمن هيئ له بأكثر منه .

أو يستمر فى العبث بأحشاء المريض دون أن يضمن سلامة النهاية فتكون الكارثة !

وقفزت أمامى العبارة الساذجة التى يرددها كتاب القصة القصيرة بصفة دائمة :

(إن كتابة القصة القصيرة أصعب بكثير من كتابة الرواية الطويلة) .

أحسست أن هذه العبارة ليست إلا أكذوبة كبيرة يغطى بها كتاب القصة القصيرة عجزهم عن كتابة الرواية بعد أن اكتشفت بصورة عملية أنْ لاوجه للمقارنة قط بين الجهد الذى تستأديه كل منهما ؛ ليبذله الكاتب فى أثناء الكتابة ، أكثر من هذا .

أحسست أيضا أن الفرق بين كتابة القصة القصيرة وبين كتابة الرواية كالفرق بين اثنين :

رجل يبنى حجرة على مساحة من الأرض مجرد حجرة واحدة : أربعة جدران يعلوها سقف ، وهذا كل شيء ؛ ورجل يبنى عمارة ضخمة من عشرة طوابق أو أكثر .

الغرفة لن تحتاج فى أثناء بنائها لأكثر من أن يترك فى أحد جدرانها فراغاً لباب يدخل إليها أو يخرج منه ، ثم نافذة فى جـدار آخر للتهوية .

أما العمارة فلها أكثر من باب ، ولها مداخل وممرات وسلم عام وسلم للخدمة ولها مصاعد ، وهى تتألف من طوابق متعددة ، وبكل طابق أكثر من وحدة سكنية ، ولكل وحدة من هذه الوحدات ضروراتها من حجرات وشرفات وأسقف ونوافذ وحمامات ومغاسل ومطاه (ودورات) للمياه بأدواتها الصحية !

والعمارة لها مناور ومناشر – جمع منـور ومنشر إن صَحت الكلمتان لغويًّا – والغرفة يستطيع أن يضيئها بانيها بمصباح (بترولى) صغير ، أما العمارة فيجب أن تجهز بالكهربا والمياه الجارية وأن توصل أنابيب مصارفها بالمجارى العامة ومئات من هذه الضرورات التى لا يمكن أن تقوم بدونها أية عمارة كبيرة أو صغيرة ؛ لتصبح صالحة للسكنى !

وكما يرسم المهندس المعمارى كل هذا فى تصميمه « على الورق » لأية عمارة يقوم على بنائها – كذلك الروائى عندما يتصدى لكتابة الرواية عليه

ألا يغفل شيئاً مما يقوم عليه بناء الرواية التى يكتبها من تفاصيل مهما دق شأنها ، فمن مجموع هذه التفاصيل الصغيرة يكتمل العمل ، وبقدر الإحاطة بهذه التفاصيل ترتفع القيمة الفنية والأدبية للعمل الروائى ككل .

وألقيت بالقلم .

- وخلدت للراحة أياماً ثلاثة راجعت خلالها ماكتبت ، ثم وجدت نفسى أمام طريق مسدود ؛ فقد تمرد على قلمى المتدفق ، وأحسست أننى لا مفر لى من إعادة ماكتبت لأبدأ من مدخل آخر جديد ، وأن يكون تناولى الفكرة عند السرد تناولاً جديداً ، فبدأت من جديد .

وكان هذا دافعاً لى - أكثر - لأن أتشبث بصبرى ودأبى واحتمالى ما دمت سأبدأ من جديد ، وقلت لنفسى :

- إننى يجب أن أبهر من سيقرءوننى كاتباً روائياً ، وهو مطلب عزيز يهون من أجله كل جهد .

وبعد أربعة أشهر مضنية أتممت الرواية ، وكتبت فى نهاياتها كلمة الختام ، فراجعتها مراجعة جادة متأنية ، ثم دفعت بها لمن نسخها على الآلة الكاتبة ، وأرسلتها بالبريد المستعجل إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات رئيس تحرير مجلة الثقافة - دار الرسالة - عابدين - القاهرة .

وفضلت ألا أخبر صديقتى الممثلة الكبيرة الشابة بأننى كتبت الرواية التى قصت علىّ أحداثها أننى اشتركت بها فى المسابقة الكبرى التى دعا

إليها الأستاذ الزيات فى مجلة الثقافة .

كنت أود أن أفاجئها بفوزى الكبير عندما أفوز بالجائزة وأن أهدى لها هذا الفوز ؛ ففكرة الرواية فكرتها وهى التى أذنت لى بكتابتها .

وكانت كلما سألتنى – إن كنت قد بدأت الكتابة – أجبتها بأننى لم أزل أعيش فترة تهيئة ذهنية ونفسية لأبدأ بعدها الكتابة ، فهذه ستكون أول أعمالى الروائية ، ويجب ألا أمسك القلم لأخط كلمة واحدة فيها قبل أن أحس أننى امتلأت بها فهذه الفترة فى تقديرى – تماثل فترة الحمل عند المرأة لا بد لها من أن تستكمل شهورها التسعة ؛ لتجد نفسها وبرغمها تضع المولود المرتقب .

وكانت صديقتى تبتسم للتشبيه – أو للمقارنة – وتقول – الحق معك ! ولا يجوز أن تبدأ إلا بعد أن تحس أنك نُؤتَ بحمل الفكرة ، وأن اللحظة قد حانت لتفرغها على الورق .

وانقضت أشهر .

لم أنقطع خلالها عن كتابة القصة القصيرة وتمثيلية الإذاعة ، وبدأت أغطى معظم إذاعات العالم بالعديد المتوالى من هذه القصص وهذه التمثيليات .

أخيراً أعلنت نتيجة المسابقة .

وفاز بالجائزتين كُل من الكاتبين الكبيرين (نجيب محفوظ وعلى أحمد باكثير) يرحمه الله .

الأول بروايته الفرعونية « رادوبيس » والآخر بروايته التاريخية العربية « سلامة القس » .

لا أنكر أننى أحسست بخيبة مرة أليمة .

كيف جرى هذا ؟

إننى تقدمت برواية جميلة الفكرة واضحة العَبرة . وقد كتبتها بعناية لا شك فى أننى بذلت فيها جهداً لا ينكره إلا مكابر .

فكيف فشلت .

ومع ذلك .

فقد وجدت العزاء فى أن (نجيب محفوظ) هو الفائز وأن (على أحمد باكثير) هو شريكه فى الفوز وكلاهما جدير بما فاز به .

(فنجيب محفوظ) عرفته على صفحات مجلة الرواية - أخت الرسالة - التى ظهرت فى منتصف عام ١٩٣٤ تقريباً ، عرفته كاتباً للقصة القصيرة وقد بهر كل من يقرأ العربية فى العالم العربى بقصصه التى كان يكتبها ، وقد بهرنى ضمن من بهر من مئات الألوف الذين بدءوا يقرءونه .

كان (نجيب محفوظ) شيئاً جديداً وقلماً جديداً وفكراً جديداً وأسلوباً جديداً وعرضاً جديداً ولغة تكاد تكون جديدة ، ولم يكن فى ذلك الوقت قد جاوز الثانية والعشرين من عمره بشهور : فنجيب محفوظ من مواليد الحادى عشر من شهر ديسمبر من عام ١٩١١ وقد بدأ

كتابة هذه القصص فى منتصف عام ١٩٣٤ .

فى هذه السن المبكرة طاول (نجيب محفوظ) كبار كتاب القصة القصيرة فى العالم العربى بل وبزهم بأدبه المحكم العالى ، وتعتبر المجموعة التى نشرتها له الرواية على مدى سنوات متعاقبة من أعظم مانشر فى القصص القصيرة قيمة حتى يومنا هذا وقد أحسن صنعاً عندما جمع هذه المجموعة الفريدة من القصص التى كتبها فى هذه الفترة التى أعتبرها من أخصب فترات حياته الأدبية فى المجموعة التى تحمل عنوان « همس الجنون » وأنا أستأذنه فى تقديم نصيحة لمن يسمون أنفسهم أدباء الشباب – إذا جاز لى هذا – أن يقرءوا هذه المجموعة قراءة متأنية واعية . ليروا كيف كان يكتب (نجيب محفوظ) وهو فى منتصف العام الثالث والعشرين من عمره ؟

(وباكثير) أيضاً – وإن لم يكن إنتاجه فى غزارة إنتاج نجيب محفوظ – من كتاب الرواية الممتازين وكان نجمه قد بدأ صعوده ، ليأخذ مكانه بين البارزين فى أدب الرواية .

وبرغم عزائى الذى التمسته فى أن كاتبين كبيرين ، وليس اثنين من النكرات هما من فازا بجائزتى المسابقة – فقد بدأ فشلى يعذبنى ويؤرقنى ووجدت نفسى أسير رغبة جارفة ؛ لأعرف مايعيب روايتى « امرأة أحبت .

لقد بذلت فى كتابتها جهداً كبيراً

صفحات كاملة أعدت كتابتها لأننى لم أقتنع بها عند مراجعتى اياها ومواقف لا عدد لها غيرت فيها وبدلت وأنا أختار ألفاظ الحوار الذى يجرى على ألسنة أطرافها وصولاً للكلمة الأحلى والعبارة الأجمل والمعنى الأسهل .

وغير هذا وذاك مما لا يتسع المقام لحصره مما استأدانى جهوداً مضنية قرابة أربعة أشهر كاملة .

ثم ماذا بعد ذلك كله ؟

لا شىء !

وسمعت نفسى تقول لى :

– لم لاتقوم بزيارة للأستاذ الزيات فى مكتبه ؛ لتسأله فيما يعن لك من أسئلة ؟

إنه يستطيع – على الأقل – أن يخبرك : لماذا لم تنجح روايتك فلم تفز بالجائزة ؟

وراقتنى الفكرة .

يجب أن أقابل الأستاذ الزيات .

وفى اليوم التالى رحب بى الرجل فى لطف بالغ ، وفى برأستاذ بتلميذ من تلاميذه ، وقبل أن يسألنى حاجتى بدأت حديثى ، فقلت له :

– أستاذ زيات ، لقد اشتركت فى المسابقة الروائية التى دعوت لها – حضرتك – على صفحات الثقافة برواية كتبتها بعنوان « امرأة أحبت »

وأرجو أن أذكر لحضرتك – بكل الأمانة والصدق أننى لم أسع إليك اليوم محتجًّا أو غير راض أو مقتنع بالنتيجة التى أعلنت ؛ فهذا صغار أجل نفسى عنه ؛ فأعضاء لجنة التحكم كلهم أساتذة كبار لهم وزنهم الأدبى ، ولا غاية لهم إلا الوصول إلى أفضل الروايات التى تقدم بها أصحابها للمسابقة ليمنحوا صاحبها الجائزة وقد كان :

فالأستاذ (نجيب محفوظ) أستاذ كبير عرفته وقرأته على صفحات الرواية ، والأستاذ (باكثير) كذلك – روائى أستطيع أن أقول مطمئناً : إنه نسيج وحده .

ابتسم الأديب الكبير وهو يقول لى .

– والله ، هذا أجمل ما سمعت من أديب ناشئ يعرف قدر الآخرين فيذكره ، ولا يجحدهم أقدارهم برغم أنهم فازوا عليه فى مسابقة ما !

ثم لحظة صمت أضاف بعدها :

– أنا تحت أمرك ، وسيسعدنى أن أحقق لك كل ماتريد .

قلت :

– بل إننى أرجو ولا أقول : أريد .

– تفضل .

– أنْ أعرف عيوب روايتى التى لم تؤهلها للفوز لأستفيد منها أعنى أستفيد من هذه العيوب ؛ لأتجنب الوقوع فيها فى محاولاتى الروائية المقبلة

أو عندما أفكر فى إعادة كتابة امرأة أحبت من جديد ، وهى تجربتى الأولى فى كتابة الرواية .

فى هذه اللحظة استأذن علينا أحد القائمين على الخدمة فى دار الرسالة ، فقدم لى القهوة ، وانصرف ، وسمعت الأستاذ الزيات يقول لى فى رفق شديد :

– أرجو أن تعجبك قهوتنا .

ابتسمت شاكراً له رقته البالغة ، ثم سمعته يقول لى :

– إن كل أعضاء اللجنة الذين قرءوا الروايات التى تقدم بها أصحابها للمسابقة وأصدروا النتيجة قد سافروا إلى المصايف ، ولكنى أعدك بأننى سآمر الآن بأن تكون روايتك « امرأة أحبت » على مكتبى صباح غد لأقرأها بنفسى ، ولو شرفتنى بزيارة أخرى بعد أسبوع – مثلاً – فسيسعدنى أن أبين لك أوجه النقص التى سأرى – من وجهة نظرى الشخصية – أنها تعيبها والتى قد تكون من ثم هى التى حالت دون فوزها بإحدى الجائزتين .

شكرت للأستاذ الزيات لطفه البالغ ، وشربت قهوتى ، وقد أزاح حديثه القصير هما كان يثقل قلبى ونفسى ، ثم استأذنته فى الانصراف ، وبارحت دار الرسالة .

٥

مرة أخرى جلستُ أمام الأستاذ أحمد حسن الزيات فى مكتبه بعد مرور نحو عشرة أيام من زيارتى الأولى .

لمحت فوق مكتبه ظرفاً أبيضَ كبيراً من مطبوعاتِ دارِ الرسالة ، قرأت اسمى عليه ، وتحته عنوان روايتى « امرأة أحبت » فأدركت أن الظرف الكبير يضم صفحاتها ، نحو مائة وعشرين صفحة من مساحة « الفولسكاب » .

القهوة قُدمت لى أولاً ، ثم بدأ الرجل حديثه بصوته الخفيض الودود ، صوت الأستاذ المعلم المتواضع :

– أولاً أحب – بأمانة شديدة – أن أهنئك بهذه الرواية الجميلة ، فهى جميلة بحق .

قلت وأنا أرتجف لتحيته الرقيقة :

– أشكر للأستاذ الزيات هذا الرأى الذى سأعتز به طوال حياتى .

– قبل كل شىء ، أعجبنى فى كتابك احترامك البالغ الملحوظ للغة العربية ، فأنت حريص على إحيائها ، وأنت لا تلجأ إلى العامية فى إدارة الحوار كما يفعل الكثيرون ، وهو عجز منهم وقدرة منك .

أجبته وقد أحسست أن قامتى تطول أكثر :

– إنى أرى الكتابة بالعربية أسهل بكثير منها بالعامية ، هذا إلى

جانب أنها – أعنى الكتابة بالعربية – صيانة محققة لقلم الكاتب من الانزلاق إلى سوقية اللفظ العامى فى كثير من الأحيان .

وأضاف الأديب الكبير :

– أسلوبك أسلوب روائى ، وهذه حقيقة لاشك فيها ، وأنت تحسن – كما لاحظت – استعمال الجملة الاعتراضية ووضعها فى مكانها الصحيح .

ثم لحظة صمت ليضيف الأستاذ الزيات بعدها :

– استرعت انتباهى واهتمامى وإعجابى إحاطتك الدقيقة بالمعلومات الطبية والقانونية التى وردت فى سياق الأحداث ، ولست أعلم إن كنت من دارسى هذين الفرعين حتى تكتب ماكتبت بكل هذه الدقة والإحاطة عندما استدعت أحداث الرواية أن تتعرض لبعض النواحى القانونية ، وبعض ما يتطلب من الكاتب ثقافة طبية واسعة .

أجبته فى بساطة شديدة :

– إننى لم أدخل الجامعة يا سيدى بعد أن مرضت مرضاً خطيراً خطيراً خطيراً قمت منه بقدرة الخالق وحده بعد أن فتح باب مدفن الأسرة لاستقبالى ! ولكنى وجدت فى مكتبة المرحوم أبى ماعوضنى أكثر مما كنت سأحصله فى كليات الجامعة مجتمعة ، إنها مكتبة ضخمة تضم نحواً من عشرين ألف كتاب اتجهت إليها عندما قعد بى المرض ، فحال بينى وبين إتمام الدراسة التقليدية فى الجامعة ، فقرأت فى العلوم والآداب

والفلسفة والمنطق والاجتماع والتاريخ وعلم النفس والجغرافيا والإحصاء والسياسة والاقتصاد والطب والهندسة والقانون والزراعة والفقه والتصوف والعيادات ، ولا أريد أن أعدد أكثر . . . المهم أننى لم أترك فرعاً من فروع المعرفة دون أقرأ منه ما يكفينى وزيادة عندما تلجئنى الحاجة إليه فيما أكتبه .

ثم قرأت القرآن والإنجيل والتوراة والزبور أكثر من مرة قراءة دراسة متأنية ، وليس لمجرد الإلمام بما جاء فى هذه الكتب المقدسة ، ومن هنا استطعت أن أفوز الآن بهذا الوسام الكريم الذى زينت - حضرتك - به صدرى عند إشارتك إلى ثقافتى القانونية والطبية المتواضعة ، وقد ألمحت إليها فى بعض فصول روايتى .

قدم لى الأستاذ الزيات الظرف الكبير الذى أمامه ، والذى يضم روايتى وهو يقول :

- هذه روايتك ، أردها لك شاكراً جهدك الكبير الذى بذلته فيها ، أردها لك برغم شروط المسابقة التى لا تجيز رد الروايات التى لم تفز فى المسابقة إلى أصحابها ، ولكنى أردها لك - استثناء - تحية منى لأديب ناشئ أتنبأ له بمستقبل كبير بإذن الله . . وستجد داخل الظرف صفحة مكتوبة بالآلة الكاتبة تتضمن ملاحظاتى الشخصية عليها .

وأضاف الأديب الكبير بأدبه العالى وبر الأستاذ بأحد تلاميذه :

- لا أسمى هذه الملاحظات « عيوباً » شابتها فعابتها ومن أجل هذا لم

تفز بإحدى الجائزتين ، ولكنها مجرد ملاحظات فاتتك وأنت تكتب ، ربما لأنها تجربتك الأولى ، ولم تفت مثل (نجيب محفوظ) (وعلى أحمد باكثير) لأنهما – ربما – أكبر منك سناً وأكثر خبرة وأقدم تجربة ، ولهذا فازا بالجائزتين .

تناولت الظرف منه وقد أسرنى أدبه العالى ، وسمعته يضيف :

– نصيحة منى

أسرعت أقول له :

– أرجوك

– لاتعد لكتابة هذه الرواية بذاتها سريعاً ، بل اتركها فترة من الوقت قبل أن تحاول كتابتها من جديد ، وكلما طالت هذه الفترة أكثر ازدادت فى وجدانك نضجاً حتى إذا عدت إليها ؛ لتعيد كتابتها برؤية جديدة – وجدتها أكثر طواعية مما كانت عند محاولتك الأولى :

شكرت له – من كل قلبى لطفه البالغ ، وكل ما استطعت أن أقوله : إننى مهما حاولت أن أعبر للأستاذ الزيات عن مدى عرفانى فسيعجزنى التعبير حتماً

ابتسم وهو يجيبنى :

أنا لم أفعل شيئاً ، ولكنى أرجو أن تبعث لى بقصة قصيرة أنشرها لك فى الرواية ، إنك تكتب القصة كما أعتقد ، فقد قرأت اسمك أكثر من مرة فى كثير من صحفنا الأسبوعية .

شكرت له — مرة ثانية أو ثالثة — لطفه ورقته وبره ، وقمت فصافحته وسار معى حتى باب مكتبه مودعاً وهو يؤكد انتظاره لقصتى القصيرة التى سألنى أن أبعث بها إليه .

وأسرعت إلى بيتى ، وبدأت قراءة الملاحظات التى أخذها الأستاذ الزيات على روايتى ، وضمنها الصفحة التى أرفقها بها عندما ردها لى .

قرأتها عشر مرات ، عشرين مرة ، لا أذكر عدد المرات بالضبط ، ولكن الشىء المؤكد أننى كنت أفوز من كل قراءة بشىء أضيفه إلى معلوماتى ، وأزداد اقتناعاً بأن كل ما أشار إليه قد فاتنى فعلاً وأنا أكتب روايتى الأولى .

وأحسست براحة نفسية كبيرة ، فأعدت الورقة التى تتضمن هذه الملاحظات إلى الظرف الذى يضم الرواية ، وأودعته أحد أدراج مكتبى .

٦

بعدها بأسبوع بعثت للأستاذ الزيات بطريق البريد — قصة قصيرة عنوانها « ناهد » كتبتها خصيصاً لمجلة الرواية .

ونشرت القصة على صفحات الرواية بعد أسبوع واحد ، وفاقت فرحتى بنشرها فى الرواية كل فرحة سبقتها كلما نشرت لى إحدى الصحف الأسبوعية قصة من قصصى : فالرواية كان لها مستواها الخاص والأسماء

التى تكتب على صفحاتها أسماء أعلام وكبار الكتاب فى التأليف والترجمة معاً .

وتابعت مسيرتى

أعطيت القصة القصيرة عناية أكثر واهتماماً أوفر ، فرحت أكتب وأنشر ، وأكتب وأنشر ، وحاولت أن أنسى – أو أتناسى – رغبتى الجارفة الملحة التى كانت تحرقنى لأن أكتب الرواية .

ولكن هذه الرغبة كانت أشبه ما يكون بحالة مرضية لا يكاد الإنسان يبرأ منها حتى تعاوده من جديد فترتفع درجة حرارته ، ويرتفع معها ضغط دمه ، وتتصلب شرايينه ، فتدور المرئيات من حوله ، فيفسد من حوله كل شىء !

المطرقة الصلبة الصغيرة ، أو قطعة النقود الفضية – بحافتها الخشنة – عادت كل منهما تدقّ جدار رأسى تلح علىّ لكى أعود لكتابة الرواية .

وكنت قد تركت (امرأة أحبت) جانباً فأودعتها أحد أدراج مكتبى كما قدمت ، وظلت فى مكانها نحو عشرة أعوام .

وأصبحنا فى عام ١٩٤٩

فى خلال هذه الأعوام العشرة ، قرأت – بطبيعة الحال – أكثر ، واطلعت أوسع ، واكتسبت خبرة بالكتابة أوفر ، وأحسست بالثقة تملأ نفسى ، وتدفعنى لأن أعيد كتابتها من جديد . . من أولها حتى كلمة الختام .

لم أضيع وقتاً .

وبدأت كتابتها من جديد

أنفقت ستة أشهر فى إعادة كتابتها ، أى بزيادة شهرين أطول مما استغرقتنى كتابتها فى المرة الأولى . . وكانت الورقة التى تضم ملاحظات الأستاذ الزيات أمامى تحت عينى طوال الأشهر الستة التى استغرقتها الكتابة .

حذفت مما كتبت فى المرة الأولى الكثير ، وأضفت إليه الكثير ، وقدمت مواقف على مواقف ، فوضعتها فى البداية من الأحداث ، وقد كانت تتوسطها أو قريبة من نهايتها .

وأحسست بعد أن كتبت كلمة الختام أننى كتبت شيئاً جديداً لا علاقة له بما كتبته فى المرة الأولى إلا فيما يتعلق « بالفكرة » : أعنى موضوع الرواية وأحداثها فهى الأساس .

ولكنى عندما قرأتها ، لم أقتنعْ بها .

لم أكن بحاجة لمن يقرؤها ليقول لى إنها ليست بالعمل الجيد – ولاأقول الكامل – الذى تسعى إلى تحقيقه .

وأحسست بمرارة أليمة ، وسمعت نفسى تقول لى :

إننى آسفة إذ يبدو لى أننى كنت على خطأ عندما شجعتك ودفعتك إلى كتابة الرواية بعد أن كنت أعارضك من مبدأ الأمر . . ولكن – برغم كل ذلك – إننى لا أملك إلا أن أقول لك . استمر ، يجب أن تستمر ،

المهم أن تستمر وواجه قدرك أياًّ كان هذا القدر !

وخلال هذه الأعوام الطويلة – كانت تتوثق صداقتى بالممثلة الكبيرة الشابة أكثر ، وكنا نلتقى كثيراً فى مسرح دار الأوبرا أو خارج دار الأوبرا فى أى مكان عام ، وأحياناً فى بيتها مع قدح من الشاى وقد كبرت ابنتها وأصبحت بالنسبة لى صديقة صغيرة عزيزة غالية .

صديقتى لم تلح كثيراً فى السؤال عن مصير الرواية التى روت لى أحداثها وتمنت علىّ أن أكتبها ، فعندما سألتنى عنها مرتين ، أو ثلاث مرات وكنت أقول لها . إننى مازلت أهيئ نفسى لكتابتها – كفت عن السؤال ، وتركت لى اختيار الوقت المناسب لكتابتها إذا كان فى نيتى أن أكتبها .

ثم نسيت أو تناسيت الأمر تماما ، فلم يعد يجىء له ذكر على لسانها : ذلك أننى لم أخبرها قط بأننى كتبتها واشتركت فى مسابقة مجلة الثقافة وأننى فشلت ، ومن ثم لم أخبرها بأننى أعدت كتابتها بعد نحو عشرة أعوام وأننى – فى هذه المرة – لم أرض عنها بعد أن فرغت من كتابتها ، ولم أكن بحاجة لمن يقول لى : إنها ليست العمل الروائى الجيد ولا أقول الكامل !

٧

الأعوام تمضى

وأنا أكتب القصة القصيرة وتمثيلية ومسلسلة الإذاعة وقصص أفلام السينما ، فظهر لى نحو تسعة أفلام ، ولكن الحالة المرضية – الرغبة فى كتابة الرواية – تلح على وتهاجمنى بعنف فتؤرقنى وتعذبنى وتضنينى وتتعسنى ، فسعيت إلى أستاذى وصديقى الكبير توفيق الحكيم :

وتوفيق الحكيم لم يكن غريباً على ولا أنا غريب عليه : فهو الذى وقف إلى جانبى فى بدء محاولاتى الأولى عندما بدأت أكتب القصة القصيرة ، فكنت أزوره فى مكتبه بوزارة المعارف العمومية حيث كان يشغل منصب مدير إدارة التحقيقات بالوزارة ، فأقدم له القصة التى كتبتها فيتناولها منى بلطف بالغ ثم (يرجونى) أن أمر به بعد أسبوع ؛ ليعيدها لى بعد أن يكون قد قرأها ؛ ليبدى لى رأيه فيها .

وكنت عندما أعود إليه بعد أسبوع – يناقشنى فيما كتبت مناقشة فنية ممتعة كانت تسحرنى وتبهرنى ، وفى كل كلمة – ولا أقول فى كل جملة أو عبارة – كنت ألمس توجيهاً منه سعياً لقيادتى نحو الأفضل .

وأعود إلى بيتى لأرى إن كان قد كتب عبارة أو رأيا على إحدى صفحات القصة ، فإذا به قد أضاف بين سطورها وعلى هامشيها الكثير

بقلمه الرصاص : فهنا كلمة ، وهنا جملة ، وهنا عبارة كما كان يحذف، مما كتبت بعض العبارات التى لايرى ضرورة لها ثم يربط بين بدء ماحذف ونهايته بكلمة ليستقيم المعنى .

كان – دائما – يقول لى :

ستكون كاتباً قصصيا مجيداً وكل مأستطيع أن أقوله لك : أن تقرأ أكثر مما تكتب ، وأن تستوعب ماتقرأ استيعاب من يسعى للاستفادة مما يقرأ

توفيق الحكيم إذن هو الذى أقام عودى وأصلح من وضع القلم بين أصابعى ، وأعطانى أجمل وأنبل ما يعطى الأستاذ تلميده : الرعاية والاهتمام والتوجيه الصحيح

أعود لأقول :

سعيت إلى أستاذى وصديقى الكبير توفيق الحكيم عندما استبدت بى المرارة من حيرتى مع الرواية ،

قصصت عليه القصة من أولها – من لحظة أن سمعت أحداث الرواية من صديقتى الممثلة الكبيرة الشابة – حتى اللحظة التى سعيت إليه فيها فى ذلك اليوم البعيد .

كنا آن ذاك فى أول الخمسينيات

لاذ بصمته الحكيم قليلاً ثم قال لى بهدوئه المطبوع :

دع هذه الرواية التى كتبتها مرتين وابدأ كتابة رواية غيرها لاتمت للأولى بصلة

سألته على استحياء شديد :

وبعد ؟

أجابنى كمن يريد أن يهون على الأمر كله :

بعد أن تفرغ من روايتك الجديدة - ابدأ فوراً رواية غيرها ، ثم غيرها . . ثم غير غيرها ، ولاتعد لهذه الرواية التى عذبتك إلا إذا عادت هى إليك !

ابتسمت وأنا أسأله :

وكيف تعود هى إلى ؟

ابتسم الحكيم وهو يقول :

هذه الرواية التى لم تفز بتقدير لجنة تحكيم لها وزنها عندما كتبتهالأول مرة ، ثم لم تفز بتقديرك الشخصى بعد أن كتبتها مرة (ثانية) هذه الرواية لم تفتح لك مغاليق كنوزها ، ربما لأنك ما تزال محدود التجربة مع الرواية .

أسرعت أقول :

أنا فعلاً محدود التجربة مع الرواية ، وهذه تجربتى الأولى

عادت ابتسامة توفيق الحكيم تنبسط أكثر وهو يقول :

عندما يمتنع قلب امرأة على رجل ربما لأنه محدود التجربة ، فتعذبه

وتؤرقه ، وتصل به حد اليأس من الدنيا ومافيها – فإنه يسعى إلى غيرها

قلت : هذا صحيح

ثم تشوق التجربة الرجل ، فينتقل من غيرها إلى غيرها . . ومن غير غيرها إلى غير غيرها ، ومن هذه وتلك وغير هذه وتلك يكتسب الخبرة التى كانت تنقصه التى أعجزته عن الوصول إلى قلب المرأة الأولى ، لأنه عجز عن الوصول إلى الشفرة السرية أو السحرية التى تفتح له مغاليق هذا القلب العصىّ ، فإذا ما جمعت الظروف – ثانية – بينه وبين هذه المرأة الأولى التى دوخته ، سواء سعى هو إليها شوقاً ، أوسعت هى إليه غيرة عليه من غيرها وغير وغيرها – ساعدته خبرته التى اكتسبها من هذه وتلك وغير هذه وتلك على أن يصل إلى كنوز قلبها بعد أن تكشف له – طواعية – عن هذه الكنوز الغالية التى امتنعت عليه فى محاولاته الأولى وكان معدوم – أو شبه معدوم – الخبرة والتجربة !

قلت له – أعنى توفيق الحكيم – فى صوت شاحب :

بدأت أفهم !

وعاد يضيف بتواضعه الآسر الجميل :

أنت كاتب ، وهذه حقيقة لاشك فيها ، وكل مافى الأمر أن التجربة الكافية تنقصك ، فأنا أريد منك – كما قلت لك الآن – أن تبدأ كتابة رواية جديدة ، اكتب رواية وروايتين وثلاثاً وأربعاً وعشراً ، ولن تتعثر فى النشر ، فأنت كما أعتقد – لم تعد ناشئًا ، واسمك أصبح مقروءًا

ومسموعاً من عشرات الألوف ومئاتها عن طريق قصصك القصيرة وتمثيليات الإذاعية وأفلام السينما التى يتصدرها اسمك

ثم بعد لحظة صمت قال :

ابدأ بسرعة ، ابدأ كتابة رواية جديدة ، فسيسعدنى أن أسمع منك قريباً أنك بدأت فعلاً .

٨

وبدأت .

بدأت كتابة « الثوب الضيق » ، واستغرقتنى كتابتها أربعة عشر شهراً

(الثوب الضيق) لم تستغرق كتابتها هذه الفترة الطويلة ؛ لأننى تعثرت فى كتابتها ، أو لأننى لاقيت بعض الصعوبات فى أثناء هذه الكتابة ، ولكنها كانت عملاً كبيراً طويلاً .

لم أحس وأنا أكتبها المعاناة الشديدة المضنية التى لاقيتها وأنا أكتب (امرأة أحبت) فى المرتين ؛ فالقلم بين أصابعى كان أكثر طواعية ، والكلمة كانت أسهل والجملة أو العبارة كانت أبرع وأحلى وأسرع وأجمل ، واكتشفت بسهولة أن تحررى من أسر التجربة الأولى هو الذى ساعدنى وأعاننى على كل هذا .

لم أكن أسير إطار معين أتخبط بين أضلاعه الأربعة فى حيرة تكاد

تذهب بصوابى ، وأسرعت بها مكتوبة على الآلة الكاتبة فى نحو أربعمائة صفحة من مساحة (الفولسكاب) إلى إحدى دور النشر الكبرى ، وقدمتها إلى مستشارها الثقافى مقترحا أن تتولى الدار طبعها ونشرها ، فتقبلها الرجل منى شاكراً وطلب منى أن أعود إليه بعد نحو أسبوعين ، لأعرف قراره .

* * *

زرته بعد انقضاء الأسبوعين ، فتلقانى بحفاوة بالغة وترحيب شديد ، وقال لى بصوت ودود :

– تفضل

وأمر لى بشراب مرطب وقهوة وبدأ حديثه معى فوراً :

– إنك ربطتنى خلف مكتبى هذا ست ساعات متوالية استغرقتها قراءة روايتك الممتعة .

هزنى ما سمعت من الرجل الذى راح يتم حديثه :

– لم أتناول الغذاء يومها فى بيتى كالعادة ، فاتصلت « بالهانم » وقلت لها : إننى سأتناول غذائى فى مكتبى فإن بين يدى ما لا أستطيع الفكاك منه !

أجبته على استحياء شديد :

– أشكر لك هذه التحية ياسيدى

وعاد الرجل يقول :

— القصة جميلة ومثيرة وممتعة ، ولا يستطيع من يبدأ قراءتها أن يتركها لأى سبب لكى يعود إليها بعد ذلك ، والرأى ليس رأيى وحدى ، ولكنه رأى عضوى لجنة القراءة أيضاً وهما من أعلام الرواية فى مصر ، ولست فى حل من اطلاعك على التقرير الذى كتباه عنها ، ولكنى أستطيع أن ألخصه لك فى كلمات : جاء فى تقريرهما :

إن (الثوب الضيق) عمل روائى كبير محترم لكاتب بارع يملك ناصية القلم والتعبير ، كما أنه يملك كل الأدوات الفنية التى لا غنى لأى كاتب روائى عنها ، وهو متمكن من لغته الروائية خاصة ، ومن اللغة العربية بصفة عامة فى غير افتعال أو تعمل ، وهو لهذا يتميز بأسلوب سهل رشيق سريع يلهث القارئ خلفه كلمة بكلمة !

ولكنها — برغم كل ذلك وبرغم صورها المشرقة ومميزاتها التى لا يتسع لذكرها هذا التقرير — فإن الدار بما لها من مكانة مرموقة فى الأقطار العربية كافة يتعذر عليها طبع هذه الرواية إلا إذا حذف منها مؤلفها ما تحتويه بعض صفحاتها مما يسمونه بالأدب المكشوف ! وهذا برغم عدم اعتراضنا الشخصى على هذه العبارات بل ورضائنا عنها رضاء كاملاً ، ولكن رضاءنا — بكل أسف — شىء ، والمسئولية الملقاة على عواتقنا نحو الدار شىء آخر .

وانتهى المستشار الثقافى — عند هذا الحد — من تلخيص التقرير الذى كتبته لجنة القراءة عن (الثوب الضيق)

وأحسست أننى أغوص فى مقعدى ، وأننى أستحم فى عرق بارد غزير ، ولكنى سرعان ما ملكت رباطة جأشى ، وبدأت مع المستشار الثقافى مناقشة هادئة حول ما يسميه البعض بالأدب المكشوف ، وقلت له : إنه ليس هناك أدب مكشوف وأدب غير مكشوف ! فالأدب هو الأدب ولا يخرج عن صفتين : أدب جيد وأدب ردىء !

ابتسم الرجل وهو يقول لى :

أنا معك ، وأنا أكثر منك أسفا لهذه الفقرة التى وردت فى نهاية التقرير لأنها ستحرم الدار طبع عمل روائى جميل كهذا العمل إلا إذا قبلت أن تحذف منه ما طلبوا حذفه .

قلت له فى هدوء ودون أى انفعال :

– لا أستطيع أن أحذف كلمة واحدة !

أجابنى مسرعاً مؤيداً :

– وأنا فى صفك ، فى جانبك وإلا شاه العمل وفقد روعته وبهره

وحملت الظرف الذى يضم الرواية ، وودعت المستشار الثقافى لدار النشر الكبيرة ، وانصرفت مؤكدا له شكرى الذى يعجزنى التعبير عنه .

وصحبنى حتى باب مكتبه ، وكانت آخر عبارة قالها لى :

– أرجوك . . لا تدع رغبتك فى سرعة نشر الرواية تغلبك ، فتوافق على أن تحذف منها كلمة واحدة ، فهى – كما قرأتها – عمل فريد

أجبته – وأنا أحاول إخفاء إحساسى بالخيبة والمرارة فى ابتسامة شاحبة :

– ثق من أن هذا لن يكون : فإما أن تنشر الرواية كما هى ، أو لا تنشر ألبتة .

* * *

استعدوا ، أرجوكم ، لما سأقوله لكم فى السطور القليلة الآتية وتأملوه معى جيداً :

« دخت السبع دوخات » واغفروا لى التعبير الدارج – لكى أجد الناشر الذى يرحب بروايتى وينشرها ، فبعد أن ارتفعت بى الفرحة إلى ذرى الأمل عندما عرفت رأى لجنة القراءة فى دار النشر الكبيرة – هبطت بى خيبة الرجاء إلى السفح المذل المهين !

فالجميع . . .

أقصد جميع الناشرين اعتذروا – بأدب شديد ، ودون أن يقرءوها – من عدم طبعها بحجة أن الورق قد ارتفعت أسعاره بشكل مخيف وأنهم لا يطبعون إلا الكتب العلمية الجامعية اضطراراً .

وفى النهاية ، يقول محدثى : أعنى الطابع الناشر :

نحن على استعداد لطبعها لك ، ولكن على نفقتك الخاصة وأن تتولى توزيعها !

ولم يقبل واحد منهم مجرد قراءتها .

أليس من الجائز – إذا قرأها – أن يدرك بحاسته المهنية – حاسة الطابع الناشر التاجر – أن فى طبعها ونشرها كتاباً كسبا ماديا كبيراً له ؟

وأحسست بالمرارة تملؤنى ، تملأ فمى وقلبى ونفسى ورئتى وكل مسام جلدى حتى أطراف أصابعى ! أحسست بالمرارة تملأ الهواء الذى أتنفسه ، وسمعت نفسى تقول لى : ستطبع الرواية يوماً ، أنت تعيب على الناشئين تعجلهم نشر ما يكتبون ، فما الفرق بينك – إذن – وبينهم ؟

وألقيت بالظرف الذى يضم الرواية فى أحد أدراج مكتبى وأغلقته بالمفتاح ، وأحسست بدمعة تفر من عينى !

* * *

وانقضت عشرة أعوام أخرى

عشرة أعوام كاملة ، ولا يدهشكم الرقم ! وأصبحنا فى عام ١٩٦٩

أكاد أسمع بعضكم يصيح بى الآن :

– يا صبرك يا أخى يا صبر أيوب !

ولهؤلاء أقول إنه ما من عمل أدبى تحس بعد أن تفرغ من قراءته أنه لا يساوى ثمن المداد الذى طبع به إلا كان نفاد صبر كاتبه أو مؤلفه هو العامل الأول وراء ظهور مؤلفه على غير المستوى اللائق بكلمة الأدب فى أى فرع من فروعه : قصة أو رواية أو دراسة أدبية إلى غير ذلك من مختلف فروع الكتابة كما قدمت

إلى أن كان يوم

يوم لن أنساه

الثلاثون من شهر سبتمبر عام ١٩٦٩ وقد ضمتنى جلسة مع الأستاذ أسامة عبد العزيز عيسى المحامى الذى كان ضمن الجهاز المشرف على سلسلة كتب « دار الكتاب الجديد » التى تصدر عن دار الأهرام كتاباً (شهرياً) أنيقاً يضم رواية مترجمة من عيون الأدب الغربى .

سألت أسامة :

لم لا تصدر دار الكتاب الجديد روايات مصرية مؤلفة للروائيين المصريين إلى جانب ما تنشر من المترجمات بصفة دائمة ، والمقطوع به أن الرواية المصرية أقرب بكل تأكيد إلى نفس القارئ من الرواية المترجمة ، ومن ثم فإن الإقبال على شرائها سيكون أكثر؟

أجابنى بهدوء شديد :

– الفكرة لم تخطر لنا كما أن أحداً لم يقترحها علينا !

ثم بعد لحظة صمت سمعته يسألنى :

– لم لا تقدم هذا الاقتراح مكتوباً ؟

ولم ينتظر إجابتى ، بل قدم لى ورقة بيضاء وقلماً من أقلام الحبر الجاف وهو يدعونى لكتابة هذا الاقتراح ؛ ليعرضه على اللجنة المختصة فى اليوم نفسه فكتبت الاقتراح فى ثلاثة أسطر قصيرة وقدمته له

الأحداث تجرى بسرعة مذهلة لم أعتدها من قبل .

فبعد ثمان وأربعين ساعةعلى وجه التحديد : أى فى اليوم الثانى من

أكتوبر – اتصل بى الأستاذ أسامة عبد العزيز ليقول لى :

– اللجنة وافقت على اقتراحك ، ولا ينقصها إلا الرواية المصرية المؤلفة الممتازة التى نبدأ بها هذه الخطوة ، فهل نجد عندك مثل هذه الرواية ؟ أجبته من فورى : بأننى سأقدم له – فى اليوم التالى – عملاً روائياً أرجو أن يليق بسلسلة دار الكتاب الجديد .

وفى اليوم التالى قدمت له « الثوب الضيق » فأخبرنى بأنه سيتصل بى بمجرد فراغ أعضاء اللجنة من قراءتها ؛ لينهى لى ما تقرر بشأنها .

الأحداث تجرى – لم تزل – بالسرعة المذهلة نفسها .

فلم تكد تمضى اثنتان وسبعون ساعة – أى فى اليوم السادس من أكتوبر – حتى استدعانى التليفون فوق مكتبى بجريدة الأهرام ، وإذا بأسامة عبد العزيز على الطرف الآخر ليقول لى : إن اللجنة قد فرغت من قراءة (الثوب الضيق) وإنها أجازتها بإجماع الآراء وإنه ينتظر « تشرينى » بالطابق العاشر من مبنى الأهرام لتوقيع العقد لكى تبدأ مطبعة الأهرام التجارية عملية الطبع فوراً

أيمكن هذا ؟

وبعد نحو عشرة أعوام ظلت الرواية نائمة فى ظلام أحد أدراج مكتبى بعد أن عجزت عن إقناع أى ناشر بطبعها !

أيمكن هذا ،

وبهذه السرعة

وأنا أوقع العقد بأصابع لا أنكر أنها كانت ترتجف « لهول » اللحظة ، أدارت زميلة صغيرة كانت تجلس خلف مكتبها مفتاح « راديو ترانزيستور » صغير أمامها ، فإذا بصوت أحد قارئى القرآن يتلو الآية الكريمة :

(ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) .

وغلبتنى دمعة فرت من بين جفنى ، فأحنيت رأسى بأكثر من اللازم وانا أوقع العقد ، لأخفيها حتى لا يلحظها الصديق أسامة عبد العزيز

فى ذلك اليوم أحسست أننى حققت انتصاراً ضخماً عوضنى صبرى الطويل وسهرى الأطول وقلقى الأكثر طولا من صبرى وسهرى .

كان توقيعى عقد طبع ونشر (الثوب الضيق) لفتة فى حياتى الروائية .

وأسرعت إلى أستاذى توفيق الحكيم لأنهى إليه النبأ .

أخبرته أننى أخذت بتوجيهه ، وبدأت كتابة رواية جديدة غير تلك التى أغلقت أمام قلمى أسرارها ، وأننى وقعت عقد نشرها اليوم ، فباركنى الرجل الكريم كما يبارك الأستاذ الكبير واحداً من تلاميذه . .

وكان كل ما قاله لى :

– سيسعدنى أن أسمع أنك بدأت عملاً جديداً ، لا تنتظر ظهور (الثوب الضيق) ، لكى تبدأ العمل الجديد ، بل ابدأ فوراً .

ثم بعد لحظة صمت قال :

– ولا تتعجل العودة لكتابة « امرأة أحبت » للمرة الثالثة ودع المحاولة للظروف لتعطى نفسك فرصة التجربة الطويلة ؛ لتكتسب خبرة أكثر .

٩

لم أهدر يوماً واحداً ليضيع منى هباء

بدأت من فورى كتابة روايتى الثانية « الجحيم فى الجنة » وانتهيت من كتابتها فى نحو عشرة شهور ، وقدمتها إلى دار الشعب ، وكانت (الثوب الضيق) قد ظهرت خلال هذه الشهور العشرة فى جزأين :

الجزء الأول صدر فى الأول من مارس عام ١٩٧٠ ونفذت نسخه جميعها (خمسة وعشرون ألف نسخة) قبل أن يصدر الجزء « الثانى » بعد شهر واحد ، أى فى الأول من أبريل وفى خلال ثلاثة أسابيع نفذت كل النسخ المطبوعة من الجزء « الثانى » وعددها مساو – بطبيعة الحال – لعدد نسخ الجزء الأول !

وظهرت « الجحيم فى الجنة » وفاق نجاحها كل التوقعات برغم ارتفاع ثمنها لأنها كانت فى أربعمائة صفحة من القطع الكبير .

وأحسست بمسئوليتى أكثر

فقد بدأت أتلقى عدداً من رسائل القراء من مختلف البلاد العربية ، ولم أكن أملك أكثر من دموع الفرح تفيض بها عيناى وأنا أقرأ هذه الرسائل التى ضاعفت من إحساسى بالمسئولية

ولم تخل رسالة من هذه الرسائل – وكانت بالمئات – من سؤال يوجهه لى صاحب كل رسالة :

من أين يستطيع أن يحصل على الجزء « الثانى » من (الثوب الضيق) لأنه فاته ؟ أو من أين يستطيع أن يحصل على الرواية كاملة بجزأيها ؟

ولكن الأمر كان قد خرج من يدى بعد أن نفذت الرواية من السوق ، ولم يعد منها إلى مخازن الأهرام نسخة واحدة ؟

خمسون ألف كتاب – مجموع نسخ الجزأين من الرواية ، نفذت فى أسابيع ، والتقيت أنا والصديقة الفقيدة الغالية الشهيرة « سلوى حجازى » نجمة التليفزيون المصرى ، وإذا بها تهنئنى بحرارة على نجاح هذه الرواية ثم سألتنى : إن كنت قد شاهدت الحلقة الأخيرة من برنامجها الأسبوعى على شاشة التليفزيون ، فلما أجبتها سلباً قالت لى : إنها استضافت الكاتبة الرائدة الأديبة الصحفية الكبيرة الأستاذة (أمينة السعيد) لتجيب على أسئلة بعض طالبات كلية الآداب اللواتى أبدين رغبتهن فى الالتقاء بها بوصفها من أوليات خريجات القسم الإنجليزى بهذه الكلية ، فلما سألت إحداهن : ماذا تقرأ هذا الأسبوع ؟ أجابتها الطالبة أنها تقرأ (الثوب الضيق) ثم كررت السيدة أمينة السؤال نفسه

فألقته على نحو ثلاث عشرة طالبة من مجموع الطلبات اللواتى كن يجلسن أمام عدسات التليفزيون فإذا بهن يجمعن على أنهن يقرأن – جميعاً (الثوب الضيق) ، وكان هذا مدعاة لدهشة الكاتبة الكبيرة فسألت إحداهن أن تلخص لها موضوع (الثوب الضيق) ، فلخصته لها الطالبة فى طلاقة الذهن المرتب والذاكرة الحاضرة الواعية .

ثم صمتت سلوى – يرحمها الله – لتضيف :

أنا أيضا قرأت الرواية ، وأستطيع أن أهنئك بها تهنئة من القلب ، فهى عمل غير مسبوق قط فى أدبنا الروائى [١]

وضاعفت جهدى ، فاعتقلت نفسى فى بيتى الصغير ، أو « الفترينة » كما يسميه الصديق (أنيس منصور) الذى كان يضيف إلى هذه التسمية – دائما – تمنياته المخلصة بأن يرانى أسكن – يوماً – « دكاناً » ولا يطمع فيقول شقة ، فالدكان – على الأقل – أوسع قليلاً من الفترينة !

أقول : اعتقلت نفسى فى بيتى الصغير ، فكنت أجلس إلى مكتبى ما لا يقل عن عشر ساعات كل يوم . . فكتبت بعد (الجحيم فى الجنة) (عبد الباقى وبناته) ثم (لا تغسلوا الوحل) وطبعتها سلسلة كتاب اليوم ، ثم (حافية على الشوك) التى نشرتها دار المعارف فى سلسلة اقرأ

---

(١) تصدر دار المعارف طبعة جديدة من رواية (الثوب الضيق) فتصدر بعد أسابيع فى جزء واحد يضم الرواية كاملة بجزأيها .

وقد فازت بجائزة الدولة للرواية من المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب عن على ١٩٧٧ – ١٩٧٨ ، وشرفنى الرئيس السادات بمنحى وسام الدولة للعلوم والفنون من الطبقة الأولى .

للمرة الألف أحس بضخامة المسئولية التى تضاعف عبؤها على كتفى حيال القارئ الذى أتلقى رسائله (يوميًّا) بالعشرات ، فكتبت – بعد (حافية على الشوك) وفوزها بجائزة الدولة – (قلوب فى الغربة) ، ثم (دموع على ذكرى) وهى أول عمل روائى مصرى يضمه كتاب يحكى قصة هوى عارم ينبت ويترعرع ويزكو تحت خيمة سيرك شعبى !

وأتبعت (دموع على ذكرى) التى طبعتها دار الكتاب الجديد – الأهرام – عملاً كبيراً يحمل عنواناً كان مثار تساؤل الكثيرين « لكن شيئا ما . . يبقى » وقد طبعتها دار المعارف فى سلسلة كتب ثقافية .

بعد « لكن شيئا ما . . يبقى » نشرت أول مجموعة من القصص القصيرة تحت عنوان (مفتاح فى باب الجنة) ، ولم يكن فى نيتى أن أطبع مجموعة قصصية لأن كتابة الرواية قد استغرقتنى فأسرتنى وأسرت قلمى ، وأحسست أننى أحقق فيها ذاتى ، وأرى بين سطورها نفسى ونفوس من أعرف : فكثير من أبطال ما كتبت – نحو عشر روايات – تربطنى بهم صداقات كريمة قديمة ترجع إلى عشرات السنين ! ولكنى أحببت أن أكرم الكلاب (فى رواية بطلها كلب مع صاحبه الصغير) « سامح » الذى لم يتجاوز الثامنة من عمرة ، وهى تجربة غير مسبوقة فى أدبنا

الروائى المصرى ، دفعنى إلى كتابتها حبى للكلاب حبا لا يقل عن حبى لمن أحبهم من البشر !

ولا تضحكوا أرجوكم إذا قلت لكم إن صداقات كبيرة عزيزة وغالية تربطنى بكثير من الكلاب ، بعضها يتمتع بالانتماء إلى أصحابها الذين يملكونها ، وبعضها من الكلاب الضالة التى لا أصحاب لها ، وهذه ترانى مقبلاً فى الطريق فتسرع إلى لترحب بى ، لتحيطنى بحبها وحفاوتها وتظـل تشاركنى طريقى منذ لحظة أن تلقانى إلى أن تودعنى عند باب الأهرام ثم تعود أدراجها !

ولكن بعد أن كتبت الرواية وعنوانها « الهانم والكلب وأنا » اكتشفت أنها ليست بالطول الكافى الذى يسمح بطبعها وإصدارها فى كتاب تستقل وحدها به ، فأضفت إليها أربع قصص قصيرة هى « شئ صغير جداً . كبير جداً » و « من أوراق الحزينة » و « رجل وكلب » و « مفتاح فى باب الجنة » وهى القصة الأخيرة فى الكتاب وقد جعلت عنوانها عنوانه .

وقفة قصيرة هنا – أرجوكم – فهاهنا لفتة لم تكن متوقعة منى خلال رحلتى الطويلة مع الرواية : فقد اتصلت بى صديقتى القديمة الكريمة الممثلة الكبيرة وأخبرتنى أن منتجاً من منتجى أفلام السينما قد عرض عليها القيام بتمثيل دور فى إحدى رواياتى التى سينتجها فى فيلم سينمائى ، ولكنها عندما اطلعت على الدور اكتشفت أنه صغير صغير صغير

لا تستطيع أن تقبل القيام به ، فاعتذرت للمنتج بأدبها المشهود لها به ، ومن فرط أدبها - هذا - اتصلت بى ، لتخبرنى بهذا ، حتى لا يجرحنى رفضها الدور ، لأنه حقيقة لا يليق بقدرها ولا بمكانتها وتاريخها الفنى العريض ، ووعدتها بأن أستبق لها الدور الذى يليق بها فى أول عمل سينمائى جديد يتم نقله وتنفيذه عن إحدى رواياتى إلى الشاشة الكبيرة

بعد أن انتهت المكالمة التليفونية بين الصديقة الكبيرة وبينى - وجدتنى أسير إلى مكتبى كالمسحور !

كان ذلك فى أوئل الربع الأخير من عام ١٩٧٧ وكنت أقوم بعملية تبييض أحدث رواياتى « دقات على بابى » التى تصدرها دار الكتاب الجديد بعد أسابيع ، ولم يكن متبقياً من هذه العملية - عملية التبييض - أكثر من خمس أو ست صفحات

أقول سرت إلى مكتبى كالمسحور

وجلست خلفه كالمسحور

القلم الرصاص من نموذج « سكرو » الذى أكتب به دائماً أمامى فوق نصف رزمة من الورق الأبيض المعد للكتابة ، والممحاة (الأستيكة) الخضراء بجانب الورق ، وهذه كلها أدواتى للكتابة إلى جانب رقعة صغيرة من ورق (السنفرة) أدبب فوق سطحها الخشن سن القلم كلما مست الحاجة إلى ذلك ؛ لتصبح الكتابة أسهل

وكالمسحور أيضاً.

وبلا سابق تحضير ولا تجهيز ولا مقدمات ولا تهيئة نفسية لاغنى لأى كاتب عنها قبل أن يبدأ عملاً روائياً كبيراً

بدأت أخط أول كلمة فى رواية (امرأة أحبت)

بدأت أكتبها للمرة الثالثة بعد نحو أربعين عاماً عاشت خلالها فى وجدانى منذ سردت على أحدثها صديقتى الكبيرة الشابة عام ١٩٣٨ أو نحوه

كتبتها للمرة الأولى عام ١٩٣٩ عندما تقدمت بها لمسابقة مجلة الثقافة ، ولم تفز بالجائزة ، وكتبتها للمرة الثانية بعد عشرة أعوام من هذا التاريخ ولم أرض أنا عنها بعد أن وضعت فى نهايتها كلمة الختام ، فألقيت بها فى أحد أدراج مكتبى لأعود إليها فى عام ١٩٧٧ : أى بعد نحو عشرين سنة أخرى ، فيكون مجموع صبرى عليها أربعين سنة بالتمام والكمال ، أعيد هذا الرقم عليكم مرة أخرى وأصرخ به فى آذان من يسمون أنفسهم « أدباء الشباب »

أربعون عاماً انتظرتها فى صبر يقتل النفس والروح والوجدان لأننى لم أشأ أن أقدم عملاً مبتسراً ناقصاً شائهاً يجعلنى أضحوكة أمام نفسى وأمام من يقرءوننى !

وبدأت أكتب وقد لبسنى إحساس غريب .

إحساس من تحرر من الخوف ومن الرهبة ومن الحذر الشديد الشديد

الشديد الذى تؤدى شدته أحياناً لأن تختلط الأمور على الإنسان وهو يؤدى عملاً ما ، فإذا به فى النهاية أمام عمل أبرز سماته الافتعال أو الانفعال الذى يدفعنا لأن نخلط بين ما يجوز وما لا يجوز !

وكنت قد اكتسبت الخبرة الطويلة اللازمة بعد أن كتبت إحدى عشرة رواية ، وأحسست بسهولة أن هذه الخبرة قد ساعدتنى أكثر على اختيار الإطار الجديد الذى أكتب فيه (امرأة أحبت)

كتبتها بتناول جديد فى إطار جديد ، ونحيت من ذاكرتى – وأنا أكتبها للمرة الثالثة – كل سطر من سطور المحاولتين الفاشلتين السابقتين

كنت أحس أننى أكتب عملاً جديداً على ، جديداً جدة تامة لا يربطه بالمحاولتين السابقتين إلا الأحداث التى روتها على صديقتى الممثلة الكبيرة منذ نحو أربعين سنة .

واصلت ليلى بنهارى ، فقد استهوتنى الرواية وشاقتنى ، وكنت أحس سعادة ومتعة حقيقيتين تفوقان كل تصور وأنا أختتم كل صفحة من صفحات (الفولسكاب) أمامى ، لأضمها إلى ما سبق كتابته .

إلى أن انتهيت منها بعد عشرة شهور ونصف الشهر ، فقد بدأت كتابتها يوم السبت الأول من أكتوبر عام ١٩٧٧ ووضعت فى نهايتها كلمة الختام يوم الأربعاء ١٦ من أغسطس عام ١٩٧٨ ، وأعدت قراءتها قراءة مراجعة متأنية وأنا أعرف أننى أتصدى لأصعب ما يمكن أن يتصدى له الكاتب : أن يكون ناقداً لنفسه وقد تجرد من الهوى .

وأحسست بعد أن فرغت من قراءتها أننى مقتنع بها تماماً ، فقد رأيت أنها تفوق فى قيمتها الفنية بعض أعمالى السابقة التى أعتز بها ، ونالت نجاحاً جماهيرياً كبيراً

فى هذه اللحظات طافت بذاكرتى كلمات أستاذى وصديقى توفيق الحكيم التى قالها لى منذ نحو ثلاثين عاماً

دع هذه الرواية التى كتبتها مرتين ، وابدأ كتابة غيرها ، ابدأ بغيرها ثم غير غيرها ، ولا تعد إليها إلا إذا عادت هى إليك فعندما يمتنع قلب امرأة على رجل محدود الخبرة فتعذبه وتؤرقه وتصل به حد اليأس من الدنيا وما فيها – فإنه يسعى إلى غيرها ومن غيرها إلى غيرها ، ومن هذه وتلك وغير هذه وتلك – يكتسب الخبرة التى كانت تنقصه والتى أعجزته عن الوصول إلى قلب المرأة الأولى بعد أن عجز عن الوصول إلى (الشفرة) السرية أو السحرية التى تفتح مغاليق هذا القلب !

وإلى آخر ما قاله لى الأستاذ المعلم الكبير

وغيرت عنوانها (امرأة أحبت) وسميتها (هذه . . وأموت) وقدمتها للمطبعة ، وملأت سوق الكتاب بعد نحو شهرين وتخاطفتها الأيدى فلم تبق منها نسخة واحدة من نحو ثلاثين ألف نسخة فى خلال شهر واحد من تاريخ ظهورها

لا أنكر أننى عجزت عن حبس دموعى وأنا أتسلم النسخة الأولى

منها ، فهذه الرواية « هذه . . وأموت » عذبتنى كما لم تعذبنى رواية من قبل !

وخرجت من التجربة بتأكيد أو بترسيخ عقيدة استقرت فى وجدانى منذ فجر شبابى :

الصبر ، الصبر بلاحدود ، والجلد ، والدأب والمثابرة مع الإصرار والحرص على القراءة الدائبة المستمرة حتى نهاية العمر كل هذه مجتمعة هى عدة (الروائى) الذى يسعى لتحقيق ما يعيش بأمل تحقيقه ، أن يصبح روائيا يخاطب جمهوراً عريضاً من الجنسين ومن مختلف الأعمار والثقافات .

الغريب أن « هذه وأموت » ظهرت ووصلت أيدى القراء قبل أن تظهر أختها التى كتبتها قبلها « دقات على بابى » التى تأخر ظهورها لبعض ظروف مطبعية تم التغلب عليها ولن تنقضى أسابيع - بإذن الله - حتى تكون بين أيدى القراء وهى الرواية الثانية عشرة .

١٠

فى اليوم الثانى لظهور « هذه وأموت » زرت صديقتى القديمة الممثلة الكبيرة الشابة وكلنا لم نعد شباباً وإنما نعيش الآن أصعب سنوات العمر ، وقدمت لها نسخة من « هذه وأموت » وأنا أقول لها :

هذه الرواية سمعت أحداثها من بين شفتيك منذ نحو أربعين سنة ، واليوم فقط أستطيع أن أقدمها لك وأنا أحس أننى أقدم شيئاً قد يكون له بعض القيمة

هللت وابتسامة عريضة تضىء كل وجهها

هذه أسعد لحظات حياتى ، وسأقرؤها اليوم ، وغداً نتناول الشاى معاً هنا فى البيت ، وسيسعدنى أن أبدى لك رأيى فيها ، وربما فيما قد يعن لى من بعض فصولها .

١١

هذه رحلتى مع الرواية التى بدأتها عام ١٩٣٨ بعد أن كنت قد بدأت كتابة القصة القصيرة منذ عام ١٩٣٣ ،

أقدم هذه الرحلة لأدباء الشباب ، وليس عندى ما أقوله لهم أكثر من أنه لا يوجد ما يسمى بأدب الشباب وأدب الشيوخ فالأدب هو الأدب ، ولن يكون غير أحد اثنين :

أدب جيد أو أدب ردىء ، وكل ما أرجو منهم ألا يتعجلوا النشر والشهرة كما أرجو ألا ينهجوا نهج من فشلوا فى قرض الشعر الموزون المقفى ؛ كما عرفنا الشعر منذ أكثر من ألف سنة ، فلجئوا – عجزاً – إلى ما يسمونه الشعر الحر وهو لا يمت للشعر بصلة وأن يكتبوا القصة أو الرواية – إذا كتبوا – بحيث يفهم القارىء ما يكتبون بدلاً من الجنوح إلى هذه الألغاز والمعميات والتركيبات التى لا يمكن لأى مخلوق غيرهم أن يفهمها ، وهم حتى – إذا قاموا بتفسيرها بمختلف مناهج التفسير – فلن تصل كلمة مما يقولون إلى عقول السامعين !

للمؤلف

١ – فى سبيل الحرية : أول مسلسلة إذاعية تتولى الدولة طبعها على نفقتها – الدار القومية .

٢ – الثوب الضيق – رواية – دار الأهرام وتحت الطبع طبعة جديدة تصدرها دار المعارف

٣ – الجحيم فى الجنة – رواية – دار الشعب

٤ – عبد الباقى وبناته – رواية – كتاب اليوم

٥ – لا تغسلوا الوحل ! – رواية – كتاب اليوم

٦ – قلوب فى الغربة – دار الأهرام

٧ – حافية على الشوك ! – رواية – دار المعارف فى سلسلة اقرأ ، وفازت بجائزة الدولة للرواية ومنح الرئيس السادات مؤلفها وسام الدولة للعلوم والفنون من الطبقة الأولى .

٨ – دموع على ذكرى – رواية – دار الأهرام

٩ – لكن شيئاً ما . . يبقى – رواية – دار المعارف

١٠ – مفتاح فى باب الجنة – رواية طويلة مع أربع قصص قصيرة – دار الأهرام

١١ – هذه وأموت – رواية – دار الأهرام

١٢ – دقات على بابى تصدر بعد أسابيع – رواية – عن دار الأهرام

* * *

تحت الطبع ، طبعة جديدة من رواية (الثوب الضيق) تصدرها دار المعارف فى جزء واحد يضم جزأيها معاً .

١٣ – لعنة الملائكة رواية الأهرام .

١٤ – رحلتى مع الرواية ، بين يديك .

١٥ – تحت الطبع – قبلة قمر على قدمها – رواية

الكتاب القادم

التطور

د . منى فريد

رقم الإيداع	١٩٧٩/٤٨٧٤
الترقيم الدولى ٢ - ٨٤١ - ٢٤٧ - ٩٧٧	ISBN

١/٧٩/٢٠٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)